

خواطر حول الجبل

بقلم الروائي: محمد جاد الله

طالما امتلأت نفسي بالرهبة والوجل منذ نعومة أظفاري، كلما نظرت إلى الجبل!

كانت سلسلة تلال المقطم التي أسماها الناس «جبل المقطم» هي أول ما تعرفت عليه عيناى من جبال الأرض..

هناك.. على سفح التلال الحجرية الشامخة.. وفي حمايتها.. تسكن رفات أبي وأومي وكل من عبروا تباغاً من عائلتي إلى العالم الآخر، في مقابر أسرتنا المجاورة لمقام ومسجد سلطان الحب الإلهي وشاعره عمر بن الفارض..

هناك.. في طفولتي.. ارتبط الجبل وتداعيات النظر إليه عندي بالله وجهه.. وبالموت ورهبته.. وبفقد الأحباء الموحش.. وبالتحوُّلات التي تصيب الجسد بعد الموت حتى يصير تراباً..

.....

خلال فترة انشغالي وشغفي بآثار وتاريخ مصر.. تجولت ربع قرن كعابر سبيل بين أقوام مختلفة العادات والتقاليد.. مستقرة على ضفتي النيل من أقصاه إلى أدناه.. من نقاط التقائه بالبحر المتوسط شمالاً وحتى وادي حلفا جنوباً..

وعبر النظر إلى سلاسل التلال التي تفصل بين الوادي الخصيب بكل ما يحويه من مظاهر حياة على امتداده في صعيد مصر.. وبين صحراء جرداء لا نهائية، تحد الوادي من مشرق الشمس إلى مغربها.. ترسَّخ لديّ الشعور بأن التلال والجبال ما هي إلا حدود فاصلة بين عوالم وآفاق للوعي والتدبر..

.....

ثم كانت النظرة الأولى لجبال سيناء الشامخة التي تضاءلت أمامها كل تلك التلال التي ظننت يوماً أنها جبال وأنها شوامخ!!

هكذا الناس في بلادنا.. يسمون كل تلة ارتفعت عن الأرض جبلاً.. يظنون أنها تصلح لحمل خصائص وصفات الجبال.. بل وقد تصلح أيضاً لأن تكون بقعاً مقدسة!

هناك.. حيث الصخور الصلدة متباينة الألوان وتراكيب الطبقات.. حيث القمم التي تفوق السحب ارتفاعاً.. كلم الله موسى ابن الإنسان تكليماً..

وفي غار بأحد جبال مكة الشوامخ.. هبط سيد الملائكة جبريل حاملاً بشارة الوحي لمحمد بن الإنسان..

وعلى جبال بيت المقدس تهادى المسيح ابن الإنسان بين حواريه تَحْفُهُ الملائكة أينما حلَّ..

في رحاب الرواسي الشامخة تنفتح البوابات الفاصلة والمُوصلة بين الآفاق.. وكأن الجبال تحمل شفرة للتواصل.. تبوح بها لمن نظر وتأمل.. منتظراً أن تشرق شمس المعارف على وعيه.. منتظراً في تسليم.. دون توقعات أو شروط مُسبقة..

....

وقد يَتَلَهَّى الإنسان بالنظر إلى الجبال من حوله وتأملها دون أن يشغل نفسه بالنظر إلى تضاريس نفسه التي تسكن جوانحه..

فالأنفس الإنسانية تُماثل جبال الجليد في تعقيد بنيانها وغياب معظم ملامحها في تشعبات تمتد لأعماق سحيقة يصعب سبر غورها.. ولا يمثل ما نعيه من بنيانها إلا قمم تلك الجبال..

....

لو نظر الإنسان إلى نفسه تماماً كما ينظر بكل تسليم إلى جبل جليد شامخ يختفي معظمه تحت مياه الحياة المتقلبة التي تنخر في طبقاته...

لو أدرك الإنسان أن مفردات عقله الباطن تشكلها صراعات لا أول ولا آخر لها.. ثم أيقن أنه يملك تماماً المقدرة على مواجهة تلك الصراعات وحسمها بما فيه صالح أمره في تلك الحياة...

فسوف تنفتح له أبواب الرؤية لمراد الله في خلقه، على صورته التي لا توجد منها في الأكوان نسخة أخرى تتطابق معها..

وسيتعلم حينئذ أن النظر إلى شمس الاستنارة الكونية التي تشرق على وعيه ووجدانه من خلف جبل جليده لن تؤذي البصر..

حينئذ.. سيري..

....

يزول الإنسان.. بينما تبقى الجبال رمزاً للسماوية بارتفاعها.. وللثبات الراسخ الذي يحظى به المؤمنون في الدنيا..